مناهج المستشرقين في دراسة مصنفات علوم القرآن

THE ORIENTALISTS' METHODOLOGIES IN STUDYING QUR'ĀNIC SCIENCE LITERATURES

الدكتور حسن عزوزي
azzouzihasan@hotmail.com

الملخَّص

لقد اهتم المستشرقون بدراسة كتب علوم القرآن والتفسير اهتماما بالغا على اعتبار كونها علوما خادمة للقرآن ومعينة على فهم وإدراك أغراضه ومقاصده، ولاشك أن القرآنيات تشكل المجال الخصب الذي تواردت عليه أقلام كثير من المستشرقين سواء بالدراسة والبحث أو بالتحليل والنقد، بيد أنه لا يمكن الاعتداد بدراسات هؤلاء لأنها محطمة للمسلمات التي يجزم بها المسلمون ومشككة في البداهات التي يؤمنون بها، إلا أن ذلك لا يمنع من الاطلاع على ما يقال في حق القرآن الكريم وبالتالي تبين مناهج القوم وآليات البحث لديهم. من هنا تأتي أهمية هذا البحث المقترح الذي يهدف إلى تبيُّن طرق وآليات المنهج الاستشراقي في توظيف كتب علوم القرآن والتفسير في أبحاثهم وكيفية دراستهم لها، ولاشك أن الأحكام التي سيتم إطلاقها في البحث لن تكون إلا نسبية وغير شاملة أو مرتبطة بمنهج معين، فالموضوع بكر وجديد غير مطروق من قبل، كما أن المادة التي تساعد على إنضاجه لا تتوفر إلا عن طريق تجربة طويلة وممارسة مستمرة في قراءة كتب المستشرقين في مجال القرآنيات بشكل فاحص ومتعمق. ومهما يكن الأمر فإن مجموعة من الشذرات التي تكونت من خلال مطالعات فاحصة وناقدة لأبرز كتب المستشرقين في علوم القرآن والتفسير قد كانت كافية لتكوين فكرة عامة وشاملة تبرز لنا بعض ملامح ومعالم آليات المنهج الاستشراقي في دراسة مصنفات علوم القرآن والتفسير.

ABSTRACT

Orientalists showed great interest in studying books on Qur'anic sciences and tafseer. These sciences are considered as descriptive and supportive fields that help to understanding the Qur'an better and recognizing its core message. However, there is no doubt that such fields often make the first choice for most orientalists, either by studying and searching or analyzing and critiquing. But such studies may not be taken into account as they usually tend to falsify axioms held by Muslims and question their indubitable beliefs. In spite of that, this does not necessarily restrain us from examining these studies to be acquainted with what has been and is said about the Qur'an to reveal orientalists method of research.

This study aims at revealing the methodology of orientalists in employing books of Qur'anic sciences and tafseer in their research and their method in studying them. However, the results of this study are likely to be partial but neither comprehensive nor related to a particular methodology. This is because, the topic is relatively new and only few papers have been written on it. Besides, in order for this study to be more fruitful it needs long experience and deep readings in books written by orientalists in the field of Qur'anic sciences. In spite of that, a thorough examining of orientalists' most popular books in Qur'anic sciences and tafseer is sufficient to give general idea about the main features of orientalists' methodology in studying Qur'anic sciences and tafsee

Keywords: *Orientalists, tafsir, Qur'anic sciences.*

مقدمة

إن من الصعوبة بمكان بحثَ مناهج المستشرقين في دراسة مصنفات علوم القرآن والتفسير بحثا شاملا وافيا، وترجع هذه الصعوبة إلى عدة عوامل منها:

١–طبيعة الموضوع واختلاف المناهج: فتناول المستشرقين لحقل القرآنيات شديد التعقيد والتداخل لا يمكن حصره وتصنيفه بيسر لاختلاف مناهج المستشرقين وخلفياتهم الفكرية والثقافية التي ينطلقون منها في دراساتهم. فالمدرسة الألمانية في دراسة علوم القرآن بزعامة تيودور نولدكه (ت ١٩٣٠) ليست هي المدرسة الفرنسية مع أمثال رجيس بلاشير (R. Blachère) ت ١٩٧٣) أو الانجليزية مع بيل (R.Bell) أو وات (M.Watt). ويرجع التعقيد أيضا إلى تنوع مداخل وطرق تناول الموضوعات المرتبطة بالقرآن التي طبقها القوم من حيث الزمان والمكان على السواء، لذلك جاءت دراسات المستشرقين للقرآنيات متفاوتة ومختلفة.

٢–صعوبة كشف وتبين آليات المنهج: وهذا الأمر يعني أنه ليس من السهل معرفة طريقة تعامل وتناول المستشرق للمصادر العربية المرتبطة بعلوم القرآن، فالباحث الغربي عندما يدرس موضوعا معينا لا يكشف دوما عن مصادره – وإن أوهم القارئ بعكس ذلك – وحتى إذا ما كشف عن شيء منها فإنه يتعذر في كثير من الأحيان استبيان طرائق المعالجة وآليات المنهج الموظف والمطروق، ولهذا فإن الأمر يحتاج بالتأكيد إلى كثير من التنقيب والبحث واستعمال الحس النقدي الكفيل بمتابعة المستشرق في عمله خطوة بعد خطوة من أجل الوقوف على طريقة استنباطه واستقرائه للأفكار والآراء والمعلومات من كتب علمائنا الأسلاف.

ومع هذه الصعوبات فقد جاء اختيار هذا الموضوع نابعا من الاقتناع بضرورة الاطلاع على طريقة معالجة المستشرقين لمباحث القران وعلومه، اذ أن معظم المستشرقين اهتموا بدراسة كتب علوم القرآن والتفسير اهتماما بالغا على اعتبار كونها علوما خادمة للقرآن ومعينة على فهم وإدراك مقاصده وأغراضه، ولاشك أن القرآنيات تشكل المجال الخصب الذي تواردت عليه أقلام كثير من علماء المشرقيات سواء بالدراسة والبحث أو بالتحليل والنقد، ولقد بات من المألوف أن كل ما تعلق بالقرآن في دراسات القوم لا يمكن الاعتداد به ألبته لأنه لا محالة محطم للمسلمات التي يجزم بها المسلمون ومشكك في البداهات التي يؤمنون بها، وبالتالي فإنه لا مدعاة للاستفادة منهم في هذا المجال، وهذا رأي وإن كان يأخذ به قطاع عريض من باحثينا ومثقفينا ويعتبر صحيحا فيما يخص نسبة كبيرة في مجال البحث الاستشراقي إلا أن هذا لا يمنع من الاطلاع على ما يقال في حق القرآن الكريم، وبالتالي تبين مناهج وآليات البحث لدى المستشرقين.

وإذا كان موضوع بحثنا لا يتعرض لدراسة طرق بحث المستشرقين للقرآن الكريم لأن ذلك موضوع شاسع قد تم بحثه مرارا في كثير من الدراسات التي رمت الإحاطة بكل جوانبه فإن طبيعة الموضوع الذي نقترحه تهدف بالأساس الى محاولة استكشاف واستبيان بعض طرق وآليات المنهج الاستشراقي في توظيف كتب علوم القرآن والتفسير في أبحاثهم وكيفية دراستهم لها، ولاشك أن الأحكام التي سوف نطلقها لن تكون إلا نسبية وغير شاملة أو مرتبطة بمنهج معين، فالموضوع بكر غير مطروق من قبل، كما أن

المادة التي تساعد على إنضاجه لا تتوفر إلا عن طريق تجربة طويلة وممارسة مستمرة في قراءة كتب المستشرقين في مجال القرآنيات بشكل فاحص ومتعمق.

ومهما يكن الأمرفبالرغم من كون هذا الموضوع لم يسبق ان تم التعرض له في دراسات سابقة فإن بعض الشذرات التي تكونت لدينا من خلال مطالعات فاحصة وناقدة لأبرز كتب المستشرقين في مجال القرآنيات قد كانت كافية لتكوين فكرة عامة وشاملة تبرز لنا بعض ملامح ومعالم آليات المنهج الاستشراقي في دراسة مصنفات علوم القرآن والتفسير.

وللحديث عن هذا الموضوع نرى تقسيم العرض بعد المقدمة إلى مبحثين رئيسيين وخاتمة، يتعرض أولهما لمناهج المستشرقين في دراسة مصنفات علوم القرآن والتفسير نشرا وتحقيقا، أما الثاني فيتطرق للحديث عن آليات المنهج الاستشراقي في دراسة هذه المصنفات بحثا وتحليلا.

المبحث الأول: آليات المنهج الاستشراقي في نشر وتحقيق كتب علوم القرآن.

يعتبر هذا الجانب من أبرز الجوانب المشعة في تاريخ الاستشراق على اعتبار كونه جانبا خدم التراث الإسلامي وأسهم في إحيائه وإخراجه إلى الوجود، وتكمن ميزة هذا الجانب في كون هذا العمل قد تم الشروع فيه في وقت كان فيه مجال النشر والتحقيق في العالم العربي والإسلامي لم يشق طريقه بعد إلى الأمام. لقد تم التفكير في أوربا في نشر وتحقيق التراث القرآني في نهايات القرن الماضي وأوائل هذا القرن، فكان ذلك خير معين ومساعد على تطور الدراسات القرآنية وتوسيع آفاقها بفضل بروز أمهات المصادر القرآنية المعتمدة. لقد لجأ المستشرقون إلى القيام بنشر وتحقيق كثير من كتب علوم القرآن والتفسير والقراءات القرآنية على وجه الخصوص وذلك للاستعانة بها في إنضاج أبحاثهم ودراساتهم حول مختلف جوانب ومناحي الدراسات القرآنية، ويمكن القول بأن هذا السبب يعتبر أكبر دافع لهم على البحث عن أبرز الكتب المخطوطة في هذا المضمار ونشرها، ولعل أهم ما تم نشره من ذلك: كتاب "الإتقان" للسيوطي (ت ٩١١) وكتاب التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ) وكتاب المقنع في الرسم له وكتاب مختصر شواذ القراءات لابن خالويه (ت ٣٧٠) وكتاب المحتسب في شواذ القراءات لابن جني(ت ٣٩٢) وكتاب معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧) وكتاب فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) وغيرها، ومن كتب التفسير: الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨) وتفسير البيضاوي (ت ٦٩١) وكتاب المصاحف لابن أبي داود (ت ٣١٦) وهو في جمع مصاحف الصحابة والتابعين الخاصة، وغير ذلك([١٣٤]).

فجميع هذه الكتب وغيرها وإن وجدت بين أيدينا اليوم في طبعات جديدة ومحققة في البلاد الإسلامية فإن الفضل في إخراجها من غيابات الخزانات النائية بعدما ساد الاعتقاد بفقدان البعض منها إنما يرجع لهؤلاء الذين دفعهم الصبر الجميل إلى ارتياد هذا المجال الصعب.

---

[١٣٤] – انظر معلومات أخرى عن هذا الموضوع في كتاب " المستشرقون" ––نجيب العقيقي (تراجم مختلفة).

وإذا ما تساءلنا عن مناهج المستشرقين في إخراج هذه الكتب إلى الوجود وكيفية معالجتهم لموضوعاتها يتبين لنا أن ذلك يتفاوت من مدرسة إلى أخرى ومن مستشرق إلى آخر، فهناك من كان يكتفي بمجرد النشر دون أدنى تعليق أو تحقيق وهذا هو الغالب كما هو الشأن بالنسبة لبرتزل الألماني (O.Pretzel) في نشره لكتاب التيسير للداني، وكذا عمل برجستراسر (Bergstrasser) في إخراجه لكتاب: غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري (ت ٨٣٣)، وهناك من كان يهدف إلى نشر الكتاب مع دراسته دراسة وافية، فيكون الكتاب منشورا في أصله العربي وتلحق به الدراسة التي تكون في الغالب بلغة المستشرق الأم، وهذا العمل قل من المستشرقين من ينشط له ويعد له عدته، ويمكن أن نعطي مثالا لذلك بنشر أرثر جفري (Arthur Jeffery) لكتاب المصاحف لابن أبي داود، والذي ألحق به دراسته للكتاب باللغة الانجليزية([١٣٥]).

وإذا كان المستشرقون المهتمون بمجال النشر والتحقيق يبذلون قصارى جهودهم من أجل النقل الأمين والقراءة الصحيحة للكتاب المخطوط المراد نشره، فإن قلة الضلوع في أسرار اللغة العربية وتراكيبها وصعوبة قراءة المخطوطات العربية المختلفة الخطوط والرسوم تجعلهم يقعون في كثير من الأحيان في أخطاء تؤدي إلى حصول بتر في الكتاب المنشور أو يتم على الأقل تغيير المعنى المراد، كما حصل — على سبيل المثال– في تحقيق كتاب: " مختصر شواذ القراءات" الذي قام به الألماني برجستراسر، حيث صَحَّف عبارة أبي عمرو بن العلاء (فقد تربع في لحنه) فجعلها (فقد تربع في الجنة) مع أن المقام مقام ذم.

ومهما يكن الأمر فإن المستشرقين في مجال نشر المخطوطات قد تفانوا في أعمالهم وأبدوا صبرا عجيبا ونادرا في البحث والدرس والتمحيص، وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرزاق إلى الإعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم([١٣٦])، كما أشاد الشيخ أمين الخولي ببحث ألقته المستشرقة الروسية كراتشوفسكي في مؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين في موضوع " نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر فقال:" لقد قدمت السيدة كراتشوفسكي بحثا عن نوادر مخطوطات القرآن في القرن السادس عشر الميلادي وإني أشك في أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها([١٣٧]). ومن المعلوم أن منهج المستشرقين في النشر والتحقيق وما يتوقف عليه ذلك من بحث واسع عن النسخ الخطية في جميع خزانات العالم والحرص على الحصول عليها والتزام الدقة في المقابلة يعتبر منهجا صارما ودقيقا يمكن الاطمئنان إليه وخاصة فيما أنتجه كبار المستعربين الملمين بكثير من أسرار اللغة العربية، ونخص بالذكر هنا مدرسة نولدكه الألمانية التي نجد من أبرز تلامذتها: برتزل Pretzel وشفالي Schwally وبرجستراسر Bergstrasser.

ونشير بهذا الصدد إلى أن المجمع العلمي البافاري عندما قرر جمع المصادر الخاصة بالقرآن الكريم وعلومه وضبط قراءاته قصد نشرها تولى المهمة برجستراسر، وساعده في بعضها زميله أوتو برتزل، ولما توفي الأول عام ١٩٣٣ انتدب المجمع برتزل

---

[١٣٥]– Arthur Jeffery: Materials for the history of the text of the Quran. Istambul 1936.

[١٣٦] : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية –مصطفى عبد الرزاق ص ٢٧.

[١٣٧] – المستشرقون –نجيب العقيقي، طبعة دار المعارف بالقاهرة الرابعة ٣٥٢/٣.

لاستكمال العمل غير أن قنابل الحرب العالمية الثانية قد وقعت على معهد الأبحاث القرآنية الذي أسس لهذا الغرض فتم إتلاف ما كان فيه.

ويتمثل العمل الذي قام به الباحثون في هذا المعهد فيما يلي:

١) جمعوا فيه أهم ما يوجد من المطبوعات العربية في مجال التفسير وعلوم القرآن والقراءات.

٢) جمعوا بالعكوس الشمسية من جميع العالم ما لم يطبع من كتب القراءات القرآنية.

٣) حصلوا على العكوس الشمسية لآلاف من نسخ القرآن الخطية من جميع العصور، وجمعوا من النسخ القديمة كل ما عثروا عليه ولو كان ورقة أو ورقتين.

٤) بدأوا بأوسع تفسير للقرآن، فجمعوا لكل آية علبة خاصة وضعوا فيها تفسير الآية حسب جميع مفسري القرآن منذ عهد الصحابة إلى عصرنا هذا، ورتبوا تلك الاقتباسات حسب زمن المفسر الأقدم فالأقدم، فكان من الممكن أن يعرف تطور التفسير لكل لفظة ولكل آية من القرآن، ولا شك أن هذا المشروع – المأسوف عليه– كان بإمكانه أن يعطينا فكرة عن طرق تعامل وتداول الباحثين الألمان لكتب علوم القرآن والتفسير التي جمعوا المخطوط منها والمطبوع واستخرجوا منها بعد الدراسة والتنقيب كل التفسيرات القديمة والقراءات المختلفة لآي القرآن.

المبحث الثاني: قيمة مصادر علوم القرآن المعتمدة في الدراسات الاستشراقية وطرق توظيفها بحثا وتحليلا.

لا شك أن فعالية ونجاعة المنهج المتبع في أية دراسة تتوقف على قيمة وطبيعة المصادر والروافد المعتمدة، إذ هي القاعدة المغذية والمادة الخام التي ترتكز عليها الدراسة، فكلما كانت المصادر رئيسية وأصلية وذات علاقة مباشرة بالموضوع كلما كانت الدراسة أقرب إلى حصول المراد المنشود والمبتغى المقصود من طرف الباحث.

وفي إطار البحث الاستشراقي يتبين أن المنهج المتبع في انتقاء وتخير المصادر المعينة على بحث الموضوعات المرتبطة بالقرآنيات يتنوع ويختلف تبعا لطبيعة الموضوعات المطروقة من جهة ولمدى موضوعية الباحث المستشرق وأمانته العلمية في توظيف تلك المصادر والنقل عنها من جهة ثانية، وسنتحدث فيما يلي عن بعض النقاط التي تبرز لنا نوع الخلل الذي يطال أحيانا بعض دراسات المستشرقين في هذا المضمار إيمانا منا بأن دراسات المستشرقين في مجال القرآنيات ليست كغيرها لا لشيء إلا لأنها تنصب على موضوع حساس يرتبط بمسألة الوحي المحمدي الذي لا يؤمن به الباحث ولا يمكن أن يتعاطف معه مبدئيا، وبالتالي لا بد من أن تؤثر عليه قناعاته الدينية في مجال البحث، ولعل أبرز مواطن الخلل التي يمكن الإشارة إليها ما يلي:

١) اعتماد عدد معين ومحدود من مصنفات علوم القرآن دون غيرها

وهذا أمر يمكن أن يلاحظه كل من تتبع عن كثب أعمال القوم في مجال القرآنيات، فعدد المصنفات العربية المتعلقة بعلوم القرآن المعتمدة من طرف المستشرقين محدود جدا، ولا يكاد يُتجاوز إلى ما عداه، وهي في معظمها كتب كلاسيكية جامعة لم تتحر الصحة والنقد والرواية السليمة.

من جهة أخرى يلاحظ أن المصنفات المعتمدة لدى المستشرقين المعاصرين هي نفسها التي كان يعتمدها أسلافهم، وبالتالي يمكن القول بأن حصر المصادر ونوعيتها يكاد يكون تقليدا في البحث الاستشراقي، فالمطلع على لائحة المصادر والمراجع المنشورة في كل بحث أو دراسة من دراساتهم يلاحظ هذا الأمر بشكل بارز، وقد تتميز الدراسات المعاصرة باعتماد عدد آخر من المصنفات العربية الحديثة لكن يجمعها جميعا إطار معين ويخدم أغراضا معينة، فالنتائج المغلوطة في حقل تاريخ النص القرآني والمكتسبة خلال أكثر من قرن منذ ظهور كتاب تيودور نولدكه Th.Noldeke: تاريخ القرآن (١٣٨) Geschichte des Qorans قد أريد لها منهجيا أن تبقى كما هي خدمة لمنهج معين يرمي إلى الإبقاء على نفس الشبهات والافتراءات التي نسجها المستشرقون الأوائل. إذ لا يريد هؤلاء التحرر من نظريات أشياخهم في مجال القرآنيات، وهو ما يدفع بشكل طبيعي إلى اعتماد نفس المصادر، والإشارة إلى نفس الاقتباسات والإحالات ثم نفس الاستنتاجات والافتراضات. وإذا ما كانت هناك مصادر جديدة وحديثة فإنما يستأنس بها فيما من شأنه تبرير وتسويغ وتعزيز نفس الطروحات والنظريات المستنتجة، وهذا ما يلاحظ من خلال مادة "القرآن" التي حررها المستشرق ا.ت. ويلش A.T. Welch في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الثانية(١٣٩) وهي مادة جامعة لأبرز علوم القرآن التي درج المستشرقون على الخوض فيها ودراستها. فهذه المادة تقدم موازنة نقدية بين معطيات البحث الاستشراقي في مجال القرآنيات قديما وحديثا. وبالرغم من تنوع المصادر المعتمدة واللجوء إلى مصادر جديدة فإن النتائج المكتسبة والنظريات المتوصل إليها تبقى هي نفسها التي تم تكريسها على مدى قرنين من الزمن، وإذا ما كانت هناك اختلافات بسيطة فهي لا تمس جوهر الموضوعات التي يحرص المستشرقون على توحيد المنهج المتبع في بحثها. ولعل مما أسهم بشكل كبير في الاحتفاظ بهذا الواقع في البحث هو أن كتاب نولدكه المشار إليه أعلاه بقي لحد الآن دستور المستشرقين في مجال بحث تاريخ النص القرآني، فهم لا يكادون يخرجون عن طوقه ولا يستطيعون التعبير عن خلاف ما جاء به إلا لماما، وبهذا أمكن اعتبار كتاب نولدكه القاعدة الأساسية التي ينطلق منها الباحثون في مجال القرآنيات مع تطوير أبحاثهم وتنقيحها بما جد في الموضوع وتلاءم مع المنهج العام المتبع.

ومن نواحي الضعف المنهجية التي تدخل في نفس السياق محاولة دراسة اتجاه معين في التفسير أو تيار معين في مجال من مجالات علوم القرآن من خلال نموذج أو نموذجين يتم اختيارهما والوقوف عندهما دون غيرهما، مثال ذلك ما اعتمده جولدزيهر في كتابه " مذاهب التفسير الإسلامي" (١٤٠) فقد كان يرمي إلى تحقيق افتراض بعينه اعتنقه مقدما واعتسف من المقدمات واختار من الوسائل والأمثلة في تاريخ التفسير ما يوصله إلى ذلك الغرض، ويحقق له تلك النتيجة بعينها فاقتصر على دراسة تفسيرين: تفسير الطبري وتفسير المنار، وقد يكون من حق المؤلف أن يلتزم منهجا يسعف على تصوير افتراض يتخيله، ولكن ليس من الحق أن يقال إن جهده في هذا الصدد كشف صادق عن حقيقة التفسير عند المسلمين. لقد تخير جولدزيهر من مناهج المفسرين ما

---

[١٣٨]- الكتاب وضع في أصله باللغة اللاتينية عام ١٨٥٦ ثم نشر باللغة الألمانية عام ١٨٦٠ ثم أعيد طبعه وتنقيحه من طرف تلامذة المؤلف برتزل وشوالي وبرجستراسر ما بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٩ في ثلاثة أجزاء. وقد تم نقله إلى العربية وطبع عام ٢٠٠٤ بعناية الدكتور جورج تامر.

[١٣٩]- « Al Quran » in Encyclopédie de l'Islam , 2 éd, Tome V p 405 (Paris 1986).

[١٤٠]- مذاهب التفسير الإسلامي،-انياس جولد زيهر ترجمة د. عبد الحليم النجار، طبع دار اقرأ ببيروت.

يخدم فكرته ويكشف عن أثر الالتزام المذهبي في توجيه النص وإنطاقه بمبادئ المذهب وعقائده، وقد يكون من حق الباحث أن يسلك أي الطرق المنهجية في بحثه لكي يصبح من الواجب عليه حينئذ أن يلتزم أصول هذا الطريق طوال بحثه وألا يؤمن ببعض المنهج ويكفر بالبعض الآخر، ولو فعل المستشرق ذلك واستقصى جوانب التفسير المذهبي كلها من تشريعية فقهية إلى لغوية نحوية أو أثرية موسوعية من خلال جميع كتب التفسير التي كانت موجودة – على الأقل – في وقته لتكشفت له حقيقة مغايرة وهي أن النص القرآني نص خصيب متجدد وثري. فليس سهوا إذن أن يغفل جولدزيهر عن آثار أخرى في التفسير وإنما هو التجاهل المتعمد ليبدو محصول المسلمين من التفسير في النهاية رذاذا متناثرة فرقته الأهواء الحزبية والفكرية (١٤١).

٢) انتقاء الروايات الضعيفة والمنقطعة من مصادر علوم القرآن:

يكاد يتفق منهج المستشرقين العام في دراسة علوم الشريعة الإسلامية على تعمد اختيار وانتقاء الأخبار الضعيفة والروايات المنقطعة في بطون المصادر العربية قصد بناء الأحكام عليها والتدليل بها على مقاصد وأغراض معينة.

ولقد وجد المستشرقون في كتب معينة ما أفادهم في ضرب بعض الروايات ببعض قصد كشف تناقضها وتعارضها حسب زعمهم، وبالتالي التشكيك في مصداقية وموثوقية النص القرآني، كما أنهم قد يعتمدون بعض الروايات المنقطعة التي ترمي إلى نقض ما هو مشهور في كتاب " المصاحف" لابن أبي داود (ت ٣١٦) ضالتهم المنشودة، حيث عثروا فيه على روايات متناقضة ومنقطعة في الموضوع الواحد، كان هدف المؤلف من وراء ذكرها جمع كل ما بلغه في شأن جمع القرآن واختلاف مصاحف الصحابة والتابعين دون تمحيص أو تثبت، فكان أن وجد فيه المستشرقون مادة خصبة يبنون عليها أفكارهم ونظرياتهم.

فقد حاول المستشرقون مثلا إثارة الخلاف حول أول من جمع القرآن وذلك بالاستناد إلى روايات منقطعة. يقول كاتب مادة "القرآن" المشار إليها أعلاه: " حسب بعض الأحاديث المروية يكون عمر قد سأل عن آية من كتاب الله فقيل له: " كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة، فقال عمر: إنا لله وأمر بالقرآن فجمع، فكان أول من جمعه في المصحف". وهذه الرواية اقتنصها المستشرق ويلش من كتاب "المصاحف" لابن أبي داود ([١٤٢])، وهي رواية ضعيفة جدا حكم الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢) بانقطاعها وحمل عبارة "فكان أول من جمعه على معنى أنه أول من أشار بجمعه([١٤٣])".

واستنادا إلى بعض الأحاديث الضعيفة أيضا استنتج بعض المستشرقين أن القرآن قد سقطت منه بعض الآيات أثناء جمع الصحابة للقرآن، فمثل هذه الأحاديث تنسب للرسول صلى الله عليه وسلم قوله: "رحم الله فلانا لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أسقطتهن" ومن ذلك أيضا قولهم بضياع العديد من الآيات القرآنية أثناء الجمع استنادا إلى قول عمر(ض): "لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله، قد ذهب منه كثير ولكن ليقل: قد أخذت ما ظهر منه..."([١٤٤]).

---

[١٤١] – انظر كتاب " اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر –الدكتور محمد إبراهيم شريف، دار التراث بالقاهرة ١٩٨٢ ص٧.

[١٤٢] – كتاب " المصاحف" –ابن ابي داود. نشر جفري ص ١٠.

[١٤٣] –: فتح الباري –ابن حجر ٩/٣١٠.

[١٤٤] – مناهل العرفان في علوم القرآن –الزرقاني ١/٢٦٣.

فهاتان الروايتان ضعيفتان لا أساس لهما من الصحة، واعتماد المستشرقين عليهما وعلى غيرهما من الضعيف والموضوع في نسج الأحكام وبنائها يدل على سوء النية وقصد تحطيم المسلمات الإسلامية، وهذا أمر يشين منهجهم العلمي ويعيبه على عدة مستويات، ولا شك أن كثرة اعتماد القوم على كتاب ابن أبي داود وبخاصة في مجال تحقيق تاريخ النص القرآني واعتماد الروايات المنقطعة التي يعج بها كتاب "الإتقان" للسيوطي تبين لنا طبيعة المنهج المسلوك لدى المستشرقين في دراسة واعتماد مصنفات علوم القرآن.ومن معالم هذا المنهج أيضا إطلاق الحكم أولا ثم البحث في مصادر علوم القرآن والتفسير عما يعززه ويصلح لأن يكون شاهدا ومسوغا لذلك. مثاله ما ادعاه جل المستشرقين من أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن أميا كما يعتقد المسلمون ذلك، فمعنى الأمية في القرآن لا تعني الجهل بالقراءة والكتابة وإنما تعني الذين لم يتلقوا أي وحي أو كتاب، فهم الجاهلون بالشريعة الإلهية كما يقول بلاشير R. Blachère ([١٤٥])، ويعززون رأيهم المتهافت هذا بما أورده الطبري في تفسيره من معنى موافق لهذا الرأي مستند إلى رواية مأثورة.

وبالرجوع إلى تفسير الطبري عند تفسير قوله تعالى " ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني([١٤٦]) نجد الطبري قد أورد روايات متعددة منها قوله فيما رواه عن ابن عباس (ض) قال: الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بأيديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهال (هذا من عند الله)، وقال: قد أخبر الله أنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسوله. لكن الطبري عقب على هذا القول بأن قال، "وهذا التأويل تأويل على خلاف ما يعرف من كلام العرب المستفيض بينهم، وذلك أن الأمي عند العرب هو الذي لا يكتب" ثم يعزز حديثه بقوله صلى الله عليه وسلم: "إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب" ثم ختم بقوله: "فإذا كان معنى الأمي في كلام العرب ما وصفنا فالذي هو أولى بتأويل الآية ما قاله النخعي من أن معنى قوله (ومنهم أميون): ومنهم من لا يحسن أن يكتب([١٤٧])".

فاعتماد المستشرقين على تأويل ضعيف دون غيره من التأويلات من جهة ورجوعهم إلى الطبري الذي استقل بإيراد التأويل البعيد من جهة ثانية وإغفالهم لنقل تعقيب الطبري على تلك الآراء والتأويلات بترجيح الرأي المعروف والسائد من جهة ثالثة، كل ذلك يؤكد خطأ منهج هؤلاء في الرجوع إلى المصادر العربية واعتماد المعلومات والروايات المبثوثة فيها.

٣) تصيد النصوص والشواهد بانتقائها من كتب الأدب والتاريخ وغيرها

يعتمد المنهج الاستشراقي في دراسة مصنفات علوم القرآن على اقتباس النصوص والشواهد المعينة لبناء الأحكام واستخلاص النتائج، غير أنه في بعض الأحيان قد لا تسعف مصادر علوم القرآن في تقديم ما يبرر ويسوغ آراء القوم التي يرمون إليها، فيلتجئ هؤلاء إلى مصادر أخرى بحثا عما يعينهم على بلوغ مأمولهم فيجدون بغيتهم في كتب التاريخ والأدب وغيرها دون

---

[١٤٥]- Régis Blachère: Introduction au Coran, 2è éd – Paris 1977 p 7.

[١٤٦]- البقرة ٧٨.

[١٤٧]- تفسير الطبري ٥٢٨/١.

أدنى اكتراث بما يشكله اعتماد تلك المصادر في أمور جوهرية ترتبط بمجال القرآنيات من خلل منهجي كبير ربما كان المستشرقون أول من نبهوا إلى خطورته وعواره في أبحاثهم الأخرى.

وهكذا مثلا يتم الاعتماد على كتاب "مروج الذهب" للمسعودي وكتاب "الأغاني" للأصفهاني وكتاب "الفهرست" لابن النديم وكتاب "الإحياء" للغزالي وكتاب "الحيوان" للدميري وغيرها ([١٤٨]) في دراسة علوم القرآن والتفسير. فجولدزيهر مثلا في كتابه "مذاهب التفسير الإسلامي" لا يتوانى في اعتماد كل المصادر العربية كيفما كانت مجالاتها واتجاهاتها في سبيل تدعيم آرائه وأفكاره في حقل التفسير القرآني. والمستشرق الفرنسي بلاشير في كتابه " مدخل إلى القرآن الكريم" قد نحا نفس المنحى فتصيد كثيرا من النصوص والشواهد من بطون كتب الأدب والتاريخ. وقد يهدف أحيانا من وراء ذلك إلى خلق نوع من التشويش والبلبلة في الأذهان، ففي معرض حديثه عن عدد السور المكية والمدنية أحال في أحد الهوامش على كتاب "الإتقان" ثم قال بعد ذلك: حسب رواية يقدمها لنا ابن النديم في كتابه " الفهرست" فإن عدد السور المكية ٨٥ وعدد السور المدنية ٢٨، ثم يعقب بقوله: لاحظوا فالمجموع ١١٣ سورة([١٤٩]) وهنا نجد الرجل الذي عرف بمنهجه الصارم وحسه النقدي في البحث لم يشأ أن يقول: ربما وقع سهو في كلام ابن النديم أو أن العدد ٨٦ تحول إلى ٨٥ خطأ أثناء النسخ أو شيء من هذا القبيل ما دام إجماع الأمة الإسلامية وكذا ما تنطق به الملايين من المصاحف المطبوعة على أن عدد سور القرآن ١١٤ سورة.

٤) تجاهل اختلاف درجات ومكانة تلك المصادر في الثقة والتعويل:

لا شك أن من يسعى إلى اقتناص وتصيد الروايات والأخبار من مختلف المصادر دون تمييز بينها لا يلقي بالا إلى قيمتها، وبالتالي فهو يتجاهل تفاوتها من حيث الثقة والمصداقية، وهذا ما ينطبق على البحث الاستشراقي في مجال القرآنيات الذي يختلف عن البحث الإسلامي المؤسس على منهج اعتماد الموثوق من المصادر والمشهود له بالأولية والتميز، لذلك فإن معظم المستشرقين وهم يبحثون في علوم القرآن والتفسير يعمدون إلى تقديم كتب ثانوية وغير موثوقة على ما هو معروف لديهم من كتب موثوقة ومعول عليها، ولعل هذا المنهج الخاطئ كفيل بأن يؤدي إلى نتائج مغلوطة وخاطئة أريد لها أن تكون كذلك. فالمصادر الموثوقة ليس فيها ما يسعف القوم في تبرير وتسويغ ما يرمون إليه من الاستنتاجات والأحكام المغرضة.

ويبدو أن من أعظم أخطاء هذا المنهج المتمثل في عدم ترتيب المصادر حسب موثوقيتها وقيمتها تقديم كتب المستشرقين على غيرها من كتب العلماء المسلمين الأوائل في نقل الروايات والمأثورات. فهذا بلاشير مثلا في كتابه السالف الذكر لا يتوانى في كل مرة في الإحالة على كتاب نولدكه فيما يتعلق بذكر أحاديث نبوية([١٥٠]) أو روايات ترتبط بجمع القرآن مثلا والتي نقلت في البرهان للزركشي والإتقان للسيوطي وغيرهما.

---

[١٤٨]– انظر اعتماد جولدزيهر على هذه الكتب في كتابه السالف الذكر في الصفحات التالية: ٧٨–٨٣–٩٠–٩١، وانظر اعتماد بلاشير على مروج الذهب في كتابه ص ٢٩ و٧٦.

[١٤٩]- Blachère: op cit p 243, note: 350.

[١٥٠]– انظر مثلا ص ٦٩ حيث أحال في الهامش ٨٩ على كتاب نولدكه فيما يخص حديثا رواه أنس بن مالك

والمثير للغرابة أن يلجأ بلاشير في هامش واحد إلى الإحالة على كتاب نولدكه أولا ثم يقفيه بكتاب الواحدي في أسباب النزول وتفسير أبي حيان ثم الإتقان للسيوطي([١٥١]).

٥) الخطأ في النقل الذي ينتج عنه الخطأ في الفهم والحكم

مما عرف عن المستشرقين الولع الشديد بالتحقيق العلمي الصارم والحس النقدي العميق إلا أنهم يسقطون أحيانا في هفوات ناتجة عن الخطأ في النقل من مصادر علوم القرآن. وهذا الخطأ قد يكون أمرا عاديا إذا لم يترتب عنه خطأ آخر في استنتاج حكم ترتب عنه.

ولكن عندما يتطور الأمر إلى ذلك فإن الخطأ يصبح حينئذ فظيعا يصيب المنهج المتبع بخلل وعيب كبيرين.

مثال ذلك ما وقع فيه جل المستشرقين الباحثين في تاريخ النص القرآني من وهم تاريخي عندما يتحدثون عن السنة التي تم فيها استنساخ المصاحف في عهد عثمان (ض) فهم متفقون جميعا على أن ذلك كان سنة ٣٠هـ، وهو ما تذكره بعض كتب التاريخ خطأ([١٥٢])، والصحيح الذي لا شك فيه أن ذلك كان سنة ٢٥ هـ. وقد حقق الحافظ ابن حجر في المسألة تحقيقا دقيقا بقوله: "وكانت هذه القصة (أي جمع القرآن) في سنة خمس وعشرين في السنة الثانية أو الثالثة من خلافة عثمان"([١٥٣]).

فهذا الخطأ في النقل كان من الطبيعي أن يقع فيه باحث عادي، لكن أمثال بلاشير الذين عرفوا بصرامتهم ودقتهم في التأكد من الحقائق التاريخية ووقائعها ومقارنتها بملابساتها والظروف التي وقعت فيها يستغرب منهم الوقوع في مثل هذا.

والمشكلة لا تكمن في هذا النقل الخاطئ وإنما في الأحكام التي استنتجها بلاشير ونسج حولها كثيرا من التساؤلات الغريبة والتشكيكات المثيرة، أولها قوله بأن لوائح أسماء الصحابة المكلفين بمهمة جمع القرآن في عهد عثمان (ض) يبدو فيها اضطراب كبير، فهناك على سبيل المثال لائحة قدمها ابن أبي داود فيها اسم أبي بن كعب، وهذا الأخير قد توفي قبل عام ٣٠هـ بسنتين على الأقل. فيكون بلاشير بذلك قد أوقعه الخطأ في تعيين تاريخ الجمع الثالث للقرآن في التشكيك في وجود اسم أبي بن كعب ضمن لوائح جُماع القرآن، فهو إذن خطأ في الحكم نتج عن خطأ في النقل.

من جهة أخرى استنتج بلاشير أن إدراج اسم سعيد بن العاص في اللائحة الرباعية المشهورة إنما كان على سبيل التشريف فحسب، لأنه في عام ٣٠هـ كان سعيد بن العاص واليا على الكوفة ويستحيل أن يكون قد زاول مهمة الجمع عمليا([١٥٤]).

وهناك مثال يبين لنا وقوع المستشرق Pierre Crappon de Crapona في خطأ في الفهم ترتب عنه خطأ في الحكم. فقد أورد الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه " مات النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبو زيد" ([١٥٥]) وفهم منه أنه لم يكن يحفظ القرآن قبل موت النبي صلى الله عليه وسلم إلا أربعة، وهذا خطأ

---

[١٥١] - Blachère: op cit p 243, note 349.

[١٥٢] – انظر مثلا كتاب الكامل –ابن الأثير، حوادث سنة ٣٠، وكتاب النشر في القراءات العشر –ابن الجزري ص ٧.

[١٥٣] – فتح الباري ١٥/٨.

[١٥٤] – Blachère: op cit p 56.

[١٥٥] – صحيح البخاري ١٠٣/٦، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

كبير، إذ لا يفهم من الحديث حصر حفظة القرآن من الصحابة في هؤلاء الأربعة، بل المراد أن الذين جمعوا القرآن كتابة هم هؤلاء. ولذلك قال الإمام الماوردي (ت ٤٥٠): "وكيف يمكن الإحاطة بأنه لم يكمله سوى أربعة والصحابة متفرقون في البلاد، وإن لم يكمله سوى أربعة فقد حفظ جميع أجزائه مئون لا يحصون، قال الشيخ: وقد سمى الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام القراء من الصحابة في أول كتاب القراءات له فسمى عددا كثيرا"([١٥٦]).

أما الخطأ في الحكم الذي وقع فيه هذا المستشرق فهو قوله بأن هؤلاء الأربعة كلهم مدنيون وبذلك يكون هناك ثمة ضعف يتخلل حفظهم ما دامت ٩٠ سورة كلها مكية ([١٥٧]).

وهكذا يكون اقتصار الرجل على اللائحة الرباعية أمرا كفيلا بالحكم على أن جُماع القرآن كانوا مدنيين وليس منهم مكيون ليخلص بالتالي إلى نتيجة مفادها أن القرآن الذي وصل إلينا لم يكن عن طريق مباشرة ما دام هؤلاء الأربعة إنما أخذوا ثلثي القرآن (القرآن المكي) بواسطة المهاجرين. ولست أدري ماذا فعل هذا المستشرق بأسماء لامعة في مجال جمع وحفظ القرآن أمثال عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وسالم بن معقل وغيرهم كثير، إنه لو أنصف المستشرق وتنزه عن أغراضه في البحث لوجد عشرات الشواهد والأدلة التي تبطل ما ادعاه واستنتجه بشكل تعسفي يدل على انحراف منهجه عن سبيل النقل الأمين والفهم السليم ثم الحكم السديد.

الخاتمة والتوصيات

هكذا إذن يتبين أنه بقدر ما كان للمستشرقين من فضل على التراث المرتبط بعلوم القرآن من حيث إبرازه للوجود وإخراجه من رفوف الخزانات والعمل على نشره وتحقيقه منذ أكثر من قرن من الزمن فإن جنايتهم على هذا التراث تتجلى في دراسته على نحو مغلوط يتسم بسوء الفهم أحيانا وسوء القصد أحيانا كثيرة، وهو ما نتج عنه تشويه واضح لمعالم العلوم المرتبطة بالقرآن الكريم، وهو التشويه الذي أفرزه اعتماد مناهج محطمة للمسلمات ومشككة في البداهات التي يؤمن بها المسلمون خاصة في دراسة مصنفات علوم القرآن. حيث يكون اعتماد المنهج المؤدي إلى النتائج التي يصبو إليها المستشرقون الأساس الذي توارثه القوم بعضهم عن بعض ابتداء من مدرسة تيودور نولدكه إلى اليوم.

وقد أمكن التوصل إلى مجموعة من النتائج والتوصيات منها:

- إن دراسات المستشرقين في مجال القرآنيات ليست كغيرها لا لشيء إلا لأنها تنصب على موضوعات حساسة ترتبط بمسألة الوحي المحمدي الذي لا يؤمن به المستشرق ولا يمكن أن يتعاطف معه مبدئيا.
- إن المناهج الاستشراقية المتبعة في انتقاء مصادر علوم القرآن وتخيرها من أجل اعتمادها متنوعة لكنها في معظمها يطبعها الخلل.
- يجب عدم الانخداع بما قد يظهره بعض المستشرقين من تعاطف بالغ مع قضايا الإسلام فالامر لا يعدو أن يكون مظهرا جماليا وحضاريا يسعى المستشرق من ورائه إلى التقرب إلى المسلمين وكسب مودتهم.

---

[١٥٦] – البرهان في علوم القرآن –الزركشي ١/٢٤٢.

١٥٧- Pierre Crappon de Crapona: Le Coran aux sources de la parole oraculaire. Paris 1981 p 153.

- ينبغي رصد ومتابعة مناهج المستشرقين في دراسة مصنفات علوم القرآن من جهة وطرائقهم في بحث وتحليل القضايا والمسائل المرتبطة بعلوم القرآن ثم القيام بالرد عليها وتفنيدها من جهة اخرى.
- إن بحث وتحليل الخطاب الاستشراقي وموقفه من القرآن الكريم ليس بالامر الهين. ذلك أن أية دراسة للمنهجية الغربية وتطبيقاتها المختلفة لا يمكن أن تتحقق بشكل تام نظرا لاتساع المنظومة الاستشراقية.
- إن الخطاب الاستشراقي في دراسته لعلوم القرآن يتشكل في طرق كثيرة واتجاهات متعددة تنطلق من تصورات ورؤى خاطئة نابجة عن سوء فهم أحيانا وسوء نية أحيانا أخرى، كما تؤدي جميعها إلى نفس النتائج والأهداف مما كان له أثر واضح في إذكاء روح التعصب ضد الإسلام.
- ينبغي تجاوز دراسات المستشرقين المنصبة على ما يرتبط بعلوم القرآن وتبني دراسات الباحثين المسلمين التي ملأت الفراغ الذي كان موجودا في النصف الأول من القرن الماضي، وهذا أمر قد أصبح ملموسا حيث لم يعد هناك كبير شأن لدراسات المستشرقين التي أضحت بالية ومتجاوزة.

االمصادر والمراجع

البرهان في علوم القرآن –الزركشي، طبعة القاهرة الأولى ١٩٥٧.

اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم –الدكتور محمد إبراهيم شريف، دار التراث بالقاهرة ١٩٨٢.

تفسير الطبري، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٦٤.

صحيح البخاري، طبعة البابي الحلبي بمصر، بدون تاريخ.

فتح الباري في شرح صحيح البخاري –ابن حجر العسقلاني، تحقيق فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الفكر ببيروت.

الكامل –ابن الأثير، مطبعة النهضة بالقاهرة، بدون تاريخ.

مذاهب التفسير الإسلامي –إيناس جولدزيهر –ترجمة عبد الحليم النجار، طبع دار اقرأ ببيروت.

المستشرقون –نجيب العقيقي، طبعة دار المعارف بالقاهرة الرابعة.

المصاحف –ابن ابي داود، نشر أرثر جفري، اسطنبول ١٩٣٦.

مناهل العرفان في علوم القرآن –الزرقاني، نشر دار الفكر ببيروت.

النشر في القراءات العشر –ابن الجزري، طبعة مصر، بدون تاريخ.

Blachère (régis) ;Introduction au Coran 2ème edition,Paris 1977.

Encyclopédie de l'Islam ,Tome 5- Paris 1985.

Crapper de Crapona (Pierre) ;le Coran aux sources de la parole oraculaire- Paris -1981.

Jeffery (Arthur): Materials for the history of the text of the Quran- Istambul 1936.

Noledeke (Th) ; Geschichte des Qorans.Leipzig1938-1939.